الآيات من 124 - 126

اختبار إبراهيم عليه السلام وخصائص البيت الحرام وفضائل مكّة

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

سبب نزول الآية (١٢٥):

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: "وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلاثٍ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، لَوِ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، فَنَزَلَتْ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[1] وَآيَةُ الحِجَابِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَمَرْتَ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ، فَإِنَّهُ يُكَلِّمُهُنَّ البَرُّ وَالفَاجِرُ، فَنَزَلَتْ آيَةُ الحِجَابِ، وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الغَيْرَةِ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُنَّ: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾[2]، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ"[3].

المناسبة العامّة للآيات (١٢٤ - ١٢٦): بعد أن ذكّر الله تعالى بني إسرائيل نعمه، وبيّن كيف قابلوا النّعم بالكفر والجحود، أعقب ذلك بقصّة إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء، الذي يزعم اليهود والنّصارى انتماءهم إليه، ولو صدقوا لاتّبعوا النّبيّ محمّدًا ﷺ، لأنّه أثر دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام حين دعا لأهل الحرم، فالكلام كلّه متّصل مع أهل الكتاب.

المعنى العام

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

يقول الحقّ جلّ جلاله: واذكر يا محمّد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملّة إبراهيم وليسوا عليها، وإنّما الذي هو عليها مستقيم، فأنت والذين معك من المؤمنين، ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم أي اختباره له بما كلّفه به من الأوامر والنّواهي ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فقام بهنّ، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

والكلمات المذكورة ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾ أي بشرائع وأوامر ونواهٍ، وذلك حين اختبر الله تعالى ابراهيم عليه السلام بكلمات كي يعمل بها، منها مقام الإحسان وهي: تسليم بدنه للنّيران، وولده للقربان، وطعامه للضيفان".

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: الكلمات التي ابتلى الله بهنّ إبراهيم فأتمهنّ: فراقُ قومه في الله حين أمر بمفارقتهم، ومحاجّته نمرود في الله، وصبره على قذفه إيّاه في النّار ليحرقوه في الله، على هول ذلك من أمرهم، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم، وما أمره به من الضّيافة والصّبر عليها بنفسه وماله، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه"[5].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٥.

(٣) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أنس بن مالك، حديث رقم: ٤٠٢، كتاب: الصّلاة، باب: ما جاء في القبلة، ومن لم ير الإعادة.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٧-٦٨.

(٥) ذكره ابن كثير في تفسيره، عن ابن عبّاس، باب: سورة البقرة، الآية: ١٢٤، ج١، ص٢٨٥.

ومنها مقام الشّريعة، وهي عشر خصال، سنن الفطرة، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ، وَالسِّوَاكُ، وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الْأَظْفَارِ، وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ، وَنَتْفُ الْإِبِطِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ﴾قَالَ زَكَرِيَّا: قَالَ مُصْعَبٌ: وَنَسِيتُ الْعَاشِرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ "الْمَضْمَضَةَ" زَادَ قُتَيْبَةُ، قَالَ وَكِيعٌ: "انْتِقَاصُ الْمَاءِ: يَعْنِي الِاسْتِنْجَاءَ"[1]. وعنِ ابن عبّاس ﷺ، فِي قَوْلِه ﷻ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قَالَ:"﴿ابْتَلَاهُ اللهُ بِالطَّهَارَةِ، خَمْسٌ فِي الرَّأْسِ وَخَمْسٌ فِي الْجَسَدِ؛ فِي الرَّأْسِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَالْمَضْمَضَةُ، وَالِاسْتِنْشَاقُ، وَالسِّوَاكُ، وَفَرْقُ الرَّأْسِ، وَفِي الْجَسَدِ: تَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَالْخِتَانُ، وَنَتْفُ الْإِبْطِ، وَغَسْلُ مَكَانِ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ بِالْمَاءِ﴾[2].

وقيل هي مناسك الحجّ أو الخصال التي امتُحِنَ بها وهي: الكوكب، والقمر، والشّمس، والنّار. والهجرة، والذّبح، والأحسن أنّها ثلاث: الهجرة من وطنه، ورمي ولده بمكّة، وذبحه حين بلغ أن يسعى معه. والأرجح أنّها جميعها، فبعضها في مقام الإحسان والتّوكل، وبعضها في الفقه والحلال والحرام- في الشّريعة-، فأتمهنّ أي: وفّى بهنّ على التّمام، فإنّ ابراهيم كان محسنًا يتقن ما يقوم به.

فلما وفّى بهنّ قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي قدوة يُقتدى بك في التّوحيد وفي الأصول والفروع والأخلاق، إذ لم يبعث بعده نبيّ إلا كان من ذريّته، ومأمور باتّباعه. ولمّا جعل الله إبراهيم إمامًا، طلب ذلك لأولاده فقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فاجعل أئمّة، فأجاب الحقّ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يلحق عهدي بالإمامة الظَّالِمِينَ منهم، إذ لا يصلح للإمامة إلا البررة الأتقياء، لأنّها أمانة من الله وعهد، والظّالم لا يصلح لها[3] وقد أجاب تعالى طلب إبراهيم ﷺ والدّليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾[4] فكلّ نبيّ أرسله الله وكلّ كتاب أنزله تعالى بعد إبراهيم، كان في ذريّته ﷺ، وأما قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال مجاهد: إنّه سيكون في ذرّيتك ظالمون.

وعن قتادة قال: لا ينال عهد الله في الآخرة الظالمون، فأمّا في الدّنيا فقد ناله الظّالم فأمِن به وأكل وعاش، وقال الربيع بن أنس: عهد الله الذي عهد إلى عباده دينُه، يقول: لا ينال دينه الظالمين، ألا ترى أنه قال: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾[5] يقول: ليس كلّ ذرّيتك يا إبراهيم على الحقّ.[6]

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

يقول الحقّ ﷻ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ اُذكر يا محمّد إذ جعلنا البيت الحرام- الكعبة- ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ مرجعًا للنّاس يرجعون لزيارته والطّواف به كلّ سنة، فلا ينصرف عنه منصرف وهو يرى أنّه ما قضى منه وطرًا، أي لا يشبع أحد منه بل ويشتاق إليه كلّ من فارقه. وجعلناه محلّ أمن، فكلّ من دخله كان آمنًا من عقوبة الدّنيا والآخرة. أمّا في الدّنيا فإنّ النّاس يتخطّفون من حوله، وأهله آمنون. ففي الجاهليّة كان يُتخطّف النّاس من حولهم من قطّاع الطّرق، وأهل الحرم ومن قصده آمنون لا يُسْبَوْن. وأمّا في الآخرة فلأنّ الحجّ يجُبُّ ما قبله، وهذا

(١) رواه مسلم في صحيحه، عن عائشة، حديث رقم: ٢٦١، كتاب: الطهارة، باب: خصال الفطرة.
(٢) رواه الحاكم في المستدرك، عن ابن عبّاس، حديث رقم: ٣٠٥٥، كتاب: التفسير، باب: بسم الله الرحمن الرحيم من سورة البقرة.
(٣) ذكره ابن عجيبة في البحر المديد، باب: سورة البقرة، الآية: ١٢٤، ج١، ص١٦٢.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٢٧.
(٥) سورة الصافات، الآية: ١١٣.
(٦) ذكره ابن كثير في تفسيره، عن الربيع بن أنس، باب: سورة البقرة، الآية: ١٢٥، ج١، ص٢٨٩.

يدلّ على شرف البيت وحرمته.

ومن ضمن ما فسّر به الأئمّة من السّلف هذه الآية: أنّ الله تعالى يذكر شرف البيت، وما جعله موصوفًا به شرعًا وقدرًا، من كونه مثابة للنّاس أي جعله محلًّا تشتاق إليه الأرواح وتحنّ إليه، ولا تقضي منه وطرًا ولو تردّدت إليه كلّ عام، استجابة من الله لدعاء خليله

إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾[1]، ويصفه تعالى بأنّ من دخله كان آمنًا، حتّى أنّ الرّجل كان إذا لقي فيه قاتل أبيه وأخيه فلا يتعرّض له.

وقال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الحجر- حجر من الجنّة- الذي فيه أثر قدميه عليه السلام، ﴿مُصَلًّى﴾ تُصلّون إليه، **وهو المكان الذي يُصلّى خلفه ركعتي سنّة الطّواف بنيّة التّوكّل على الله- مقام التّوكّل-** ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل ولده عليهما السلام ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ من الأدناس والأرجاس والأصنام والأوثان، ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ للطّائفين به والمقيمين فيه، والمصلّين فيه الرّاكعين السّاجدين. فكان البيت مطهّرًا في زمانهما وبعدهما زمانًا، ثمّ أدخلت إليه الأصنام فطهّره نبيّنا محمّد ﷺ، وستبقى طهارته حتّى يأتي أمر الله سبحانه.

قال البخاريّ في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ مثابة: يثوبون يرجعون.[2] أي مرجعًا للنّاس من الحجّاج والمعتمرين يتفرّقون عنه ثمّ يرجعون.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « **رَأَيْتُ الْمَقَامَ فِيهِ أَصَابِعُهُ، وَأَخْمَصُ قَدَمَيْهِ، وَالْعَقِبُ غَيْرَ أَثَرٍ أَذْهَبَهُ مَسْحُ النَّاسِ بِأَيْدِيهِمْ**»،[3] وعن قتادة رضي الله عنه قال: «**إِنَّمَا أُمِرُوا أَنْ يُصَلُّوا عِنْدَهُ وَلَمْ يُؤْمَرُوا بِمَسْحِهِ، وَلَقَدْ تَكَلَّفَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ شَيْئًا مَا تَكَلَّفَتْهُ الْأُمَمُ قَبْلَهَا، وَلَقَدْ ذَكَرَ لَنَا بَعْضُ مَنْ رَأَى أَثَرَهُ، وَأَصَابِعَهُ فَمَا زَالَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ تَمْسَحُهُ حَتَّى اخْلَوْلَقَ وَانْمَاحَ**».[4]

وقد كان هذا المقام ملصقًا بجدار الكعبة قديمًا، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب ممّا يلي الحجر، يمنة الدّاخل من الباب في البقعة المستقلّة هناك، وكان الخليل عليه السلام لمّا فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنّه انتهى عنده البناء فتركه هناك، ولهذا والله أعلم أمر بالصّلاة هناك عند الفراغ من الطّواف وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنّما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أحد الأئمّة المهديّين والخلفاء الرّاشدين الذين أُمرنا باتّباعهم، وهو أحد الرّجلين اللّذين قال فيهما رسول الله ﷺ: «**اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ**»[5]، وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصّلاة عنده، ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصّحابة رضي الله عنهم.[6]

وعن مجاهد، قال: "أول من أخّر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه[1] وعن عائشة رضي الله عنها: "أنَّ المَقَامَ كان في

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٣٧-٤٠.
(٢) رواه البخاريّ في صحيحه، كتاب: الصّلاة، باب: قول الله تعالى: ﴿واتّخِذوا من مقامِ إبراهيمَ مصلّى﴾.
(٣) رواه الفاكهيّ في أخبار مكّة، عن أنس بن مالك، ج١، باب: ذكر الأثر الذي في المقام وموضع قدم إبراهيم عليه السلام.
(٤) رواه الأزرقيّ في أخبار مكّة، عن قتادة، باب: ما جاء في الأثر الذي في المقام وقيام إبراهيم عليه السلام عليه.
(٥) رواه الحاكم في المستدرك، عن حذيفة بن اليمان، حديث رقم:٤٤٥٥، كتاب: معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب: أما حديث ضمرة وأبو طلحة، الحديث صحيح.
(٦) ذكره ابن كثير في تفسيره، عن عائشة، باب: سورة البقرة، الآية: ١٢٥، ج١، ص٢٩٤.

زمانِ رسولِ الله ﷺ، وزمانِ أبي بكرٍ، مُلتصقًا بالبيتِ، ثمّ أخّره عمرُ بن الخطّاب رضي الله عنه "[٣].

كذلك الحجّ والعمرة، فالإتمام يشمل معنيين:

المعنى الأول: إتمام الواجبات والأركان والسُنن فلا تأتي بها ناقصة، والمعنى الثّاني إتمام المعاني القلبيّة الباطنة، مثال استحضار معاني التلبية والطّواف بين الصّفا والمروة واستلام الحجر الأسود، واستحضار معنى الحَلْق ومعاني الدّعوات والأذكار والنّيات في كلّ موقف ومنسك من هذه المناسك.

المعنى الثّاني: الإخلاص، فقد أمرهما تعالى أن يخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له، فيبنياه مطهّرًا من الشّرك والرّيب كما قال ﷻ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[٣]. وأمره تعالى أن يؤذّن في النّاس بالحجّ، قائلًا: عليك النّداء وعلينا البلاغ ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾[٤].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

يقول الحقّ ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ واذكر يا محمّد إذ قال إبراهيم في دعائه لمكّة لمّا أنزل ابنه بها بواد غير ذي زرع، وتركه أمانة عند الله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ ربّ اجعل هذا المكان بلدًا آمنًا يأمن فيه كلّ من يأوي إليه، ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ من أنواع الثّمرات، كالحبوب وسائر الفواكه ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾. لقد قاس إبراهيم الخليل الرّزق على الإمامة، فنبّه سبحانه وتعالى أنّ الرّزق رحمة دنيويّة، تعمّ المؤمن والكافر، بخلاف الإمامة، والتّقدم في الدّين، فإنّها سبب النّعيم الأخرويّ، ولا ينالها إلا أهل الإيمان والصّلاح.

قال الحقّ ﷻ: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ بل وأرزق أيضًا من كفر، ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ فأمتّعه في الدّنيا زمنًا أو تمتيعًا قليلًا. ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ثمّ أُلجئه إلى عذاب النّار وبئس المرجع مصيره.

وفي الصحيح " إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ قال: ثمّ قرأ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٥]".

وعَنْ مُجَاهِدٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ يَوْمَ الفَتْحِ فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَلَمْ تَحِلَّ لِي قَطُّ إِلَّا سَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ، لا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلا يُعْضَدُ شَوْكُهَا، وَلا يُخْتَلَى خَلاهَا، وَلا تَحِلُّ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ» فَقَالَ العبّاس بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ: إِلَّا الإِذْخِرَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنَّهُ لا بُدَّ مِنْهُ لِلْقَيْنِ وَالبُيُوتِ، فَسَكَتَ ثمّ قَالَ: «إِلَّا الإِذْخِرَ فَإِنَّهُ حَلالٌ»[٦].

---

(١) رواه ابن كثير في مسند الفاروق، عن مجاهد، حديث رقم ٣٤٦، كتاب: الحج، باب: أثر عن عمر فيما جدد عند الكعبة.

(٢) رواه ابن كثير في مسند الفاروق، عن عائشة، حديث رقم ٣٤٥، كتاب: الحج، باب: أثر عن عمر فيما جدد عند الكعبة، الحديث إسناده صحيح.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.

(٤) سورة الحجّ، الآية: ٢٧.

(٥) سورة هود، الآية: ١٠٢. رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي موسى، حديث رقم: ٤٦٨٦، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: ﴿وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ﴾.

(٦) رواه البخاريّ في صحيحه، عن مجاهد، حديث رقم: ٤٣١٣، كتاب: المغازي، باب: باب.

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآيات:

١. الإمامة لا تُنال إلا بالتّعلّق والتّخلّق بأسماء ربّ العالمين، وبصحّة اليقين والصّبر على سلوك سبيل المهتدين.

٢. مشروعيّة ولاية العهد، بشرط أن لا يُعهد إلا إلى من كان على غاية من الإيمان والعلم والعمل والعدل والصّبر.

٣. القيام بالتّكاليف الشّرعيّة قولًا وعملًا، يؤهّل صاحبه أن يكون قدوة صالحة للنّاس.

٤. منّة الله تعالى بجعل البيت مثابة للنّاس وأمنًا، توجب حمد الله على كلّ مؤمن.

٥. سُنّ صلاة ركعتين خلف المقام لمن طاف بالبيت.

٦. وجوب حماية البيت والمسجد الحرام من أيّ ضرر، يلحق من يوجد فيه من طائف وعاكف وقائم وراكع وساجد.

٧. بركة دعوة إبراهيم عليه السلام لأهل مكّة، واستجابة الله تعالى دعوته، فلله الحمد والمنّة.

٨. الكافر لا يُحرم الرّزق لكفره بل له الحقّ في الحياة، إلا أن يحارب فيقتل أو يسلم.

٩. مصير من مات كافرًا إلى النّار لا محالة، والموت في الحرم لا يغني عن الكافر شيئًا. وفي ذلك أيضًا ردّ على من لا يحجّه من أهل الكتابين اليهود والنّصارى، لأنّهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وإسماعيل عليهما السلام، ويعلمون أنّه بنى هذا البيت للطّواف في الحجّ والعمرة وغير ذلك، وقد حجّ البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء عليهم السلام كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى.

١٠. عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا، لَا يُقْطَعُ عِضَاهُهَا، وَلَا يُصَادُ صَيْدُهَا»[1] - عضاهها: الشّجرة العظيمة.

١١. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النّاس إذا رأوا أوّل الثّمر جاؤوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اللهمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللهمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَمِثْلِهِ مَعَهُ» ثمّ يدعو أصغر وليد فيعطيه ذلك الثمر، وبلفظ: «وَفِي صَاعِنَا بَرَكَةً مَعَ بَرَكَةٍ»، ثمّ يُعْطِيهِ أَصْغَرَ مَنْ يَحْضُرُهُ مِنَ الْوِلْدَانِ"[2].

١٢. وعن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفَيْ مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ»[3].

في الأمر والنّهي

العمل بالآيات:

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، عن جابر، حديث رقم: ١٣٦٢، كتاب: الحجّ، باب: فضل المدينة، ودعاء النّبيّ صلى الله عليه وسلم.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ١٣٧٣، كتاب: الحجّ، باب: فضل المدينة، ودعاء النّبيّ صلى الله عليه وسلم.

(٣) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أنس، حديث رقم: ١٨٨٥، كتاب: فضائل المدينة، باب: المدينة تنفي الخبث.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

- النّبوّة أو الإمامة في الدّين الصّالحة الدّائمة الأثر تتطلّب الاستقامة على أوامر الله واجتناب نواهيه، والإمامة المؤقّتة القائمة على الانحراف والظّلم تحفر لنفسها قبرها بيدها، وتدمّر كيانها، وتقوّض عرش وجودها. فالظّلم مانع من الإمامة ومن اتّخاذ الظّالم قدوةً للنّاس. ولا تكون الإمامة الصّالحة أو النّبوّة إلا للأفاضل الّذين يعملون الصّالحات، ويرشدون إلى الخير، ويزجرون أنفسهم وغيرهم عن الشّرّ والآثام، ولا حظّ للظّالمين في شيء من هذا؛ لأنّ الظّلم مؤذّن بخراب المدنيّات، وتدمير الحضارة والعمران.
- واستدلّ جماعة بهذه الآية على أنّ الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل، مع القوّة على القيام بذلك. فأمّا أهل القوّة والجور والظّلم، فليسوا بأهل، لقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1]

والّذي عليه أكثر العلماء: أنّ الصّبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه؛ لأنّ في منازعته وخصومته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف، وإراقة الدّماء، وانطلاق أيدي السُّفهاء، وشنّ الغارات على المسلمين، والفساد في الأرض وتدخل الكفار من أعداء الدّين بشؤون المسلمين.

- على المؤمن أن يكون من أصحاب الفطرة، فعن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: ﴿عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ، وَالسِّوَاكُ، وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الْأَظْفَارِ، وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ، وَنَتْفُ الْإِبِطِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ﴾ قَالَ زَكَرِيَّا: قَالَ مُصْعَبٌ: وَنَسِيتُ الْعَاشِرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمَضْمَضَةَ زَادَ قُتَيْبَةُ، قَالَ وَكِيعٌ: "انْتِقَاصُ الْمَاءِ": يَعْنِي الِاسْتِنْجَاءَ[2] - البراجم: هي مفاصل الأصابع، أي: ظاهر العقد، التي تجتمع فيها الأوساخ-.
- وفي السّنّة أحاديث كثيرة تأمر بتطهير المساجد وتطييبها، وغير ذلك من صيانتها من الأذى والنّجاسات وما أشبه ذلك.

في الأخلاق والآداب

التوجيهات:

كان إبراهيمُ ﵇ إمامًا للمصلحين والمهتدين بسبب قيامه بشريعة الله على أتمّ قيام، فمن أراد أن يكون إمامًا فليعمل بعمله، ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[3].

مقام إبراهيم ﵇ هو مقام التّسليم والتّوكّل على الله تعالى.

لا ينبغي أن نجهل أو ننسى أنّ رحلة فريضة الحجّ في عمومها إنّما هي تخليد لذكرى إبراهيم ﵇ وأسرته المباركة، حيث التّضحية والفداء، والبذل والعطاء، والتّسليم والوفاء.

ابتلى الله تعالى سيّدنا إبراهيم ﵇ في زوجه هاجر وولدها الوحيد، فأمره بأخذها ورضيعها الصّغير وإلقائهما في مهالك الصّحارى المقفرة، بواد غير زرع ولا ماء، في أرض مسبعة ذات هوام ووحوش، فأذعن ﵇ وأطاع.

ثمّ ابتلاه بالبلاء الذي وصفه سبحانه بأنّه ﴿الْبَلَٰٓؤُا الْمُبِينُ﴾[4]، أن يذبح ولده بعد أن بلغ معه السّعي، وهو الذي جاءه بعد أن بلغ من الكبر عتيًّا... فما نطق ولا اعترض بل سلّم لأمر الله ونفّذ وفعل ما أمر. فوفّى ﵇ لله في كلّ هذه المحن، وقام بكلمات الله على أكمل وجه وأتمّه وأحسنه؛ فكان جسده للنّيران، وولده للقربان، وماله للضّيفان، وقلبه وروحه وكلّه للرّحمن... حتّى شهد الله له بالإتمام، ووصفه بالكمال والإحسان فقال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[5]، وقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[6].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، عن عائشة، حديث رقم: ٢٦١، كتاب: الطهارة، باب: خصال الفطرة.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٤. (٤) سورة الصافات، الآية: ١٠٦. (٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٤. (٥) سورة النجم، الآية: ٣٧.

وكما وفّى إبراهيم وسلّم تمام التّسليم، وفّت زوجته وسلّمت لما رأت نفسها وحيدة في الصّحراء المهلكة مع صغير رضيع ينتظرون الموت مع كلّ لحظة وفي كلّ حين... فما سألت عن حكمة مثل هذا، بل قالت قول المؤمنة البارّة الرّاضية بكلّ تسليم ورضى: "الله أمرك بهذا؟ فلمّا قال نعم... قالت بكلّ ثقة ويقين: إذن لن يضيّعنا".

وكذلك وفّى الصّبيّ إسماعيل لمّا قال له أبوه: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾[1] فما قال إنّه رؤيا، ولعل وربّما.. ولا قال كبرت سنّك يا أبي فتثبّت، وإنّما قال كما قال أبواه: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[2].

التّسليم سمة الأسرة:

لقد كان التّسليم لله وطاعة أمره هي سمة أهل هذا البيت المباركين، وصفته البارزة التي طغت على كلّ صفة وبها رفعهم الله جميعًا إلى أعلى عليّين، فأعلى ذكرهم في العالمين، ورفع قدرهم إلى يوم الدّين ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3].

إنّنا نحتاج وبشدّة حتى نحيي هذه الصّفة "صفة التّسليم لأمر الله"، خصوصًا في هذا الزّمان الذي كثر فيه المتفلسفة والمتنطّعون، والمشكّكون، وصرنا نعيش لوثة فكريّة، فالتّسليم لله تعالى هو نوع من أنواع العبوديّة.

في السّيرة والشّمائل

اشتراكه ﷺ في بناء الكعبة

الكعبة هي أوّل بيت بني على اسم الله ولعبادة الله وتوحيده فيه، وقد جاء في بعض الآثار والرّوايات أنّ أول من بناها إنّما هو آدم عليه السلام، فعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قَالَ النّبيّ ﷺ: «بَعَثَ اللهُ جِبْرِيلَ عليه السلام إِلَى آدَمَ وَحَوَّاءَ، فَقَالَ لَهُمَا: ابْنِيَا لِي بَنَاءً. فَخَطَّ لَهُمَا جِبْرِيلُ عليه السلام، فَجَعَلَ آدَمُ يَحْفِرُ وَحَوَّاءُ تَنْقِلُ حَتَّى أَجَابَهُ الْمَاءُ، نُودِيَ مِنْ تَحْتِهِ: حَسْبُكَ يَا آدَمُ. فَلَمَّا بَنَيَاهُ أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ: أَنْ يَطُوفَ بِهِ، وَقِيلَ لَهُ: أَنْتَ أَوَّلُ النَّاسِ، وَهَذَا أَوَّلُ بَيْتٍ. ثُمّ تَنَاسَخَتِ الْقُرُونُ حَتَّى بَجَّهُ نُوحٌ، ثُمّ تَنَاسَخَتِ الْقُرُونُ حَتَّى رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْهُ»[4]، فإبراهيم عليه السلام بنى الكعبة بوحي من الله تعالى وأمره، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[5].

فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: "... قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ، جَاءَ بِهَذَا الحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولاَنِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾[6]، قَالَ: فَجَعَلاَ يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ البَيْتِ..." [7].

ثمّ تعرّضت الكعبة بعد ذلك للعوادي التي أوهت بنيانها وصدّعت جدرانها، فلم تجد قريش بدًّا من إعادة تشييد الكعبة حرصًا على ما لهذا البناء من حرمة وقداسة خالدة. ولقد كان احترام الكعبة وتعظيمها بقيّة ممّا ظلّ محفوظًا من شرعة إبراهيم عليه السلام بين العرب.

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٢. (٢) سورة الصافات، الآية: ١٠٢. (٣) سورة البقرة، الآية: ١٣١.
(٤) رواه البيهقيّ في دلائل النبوة، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، مج: ٢، باب: ما جاء في بناء الكعبة.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٢٧. (٦) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.
(٧) رواه البخاريّ في صحيحه، عن ابن عبّاس، حديث رقم: ٣٣٦٤، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿واتخذَ الله إبراهيمَ خليلًا﴾.

شارك الرّسول ﷺ قبل البعثة في بناء الكعبة وإعادة تشييدها مشاركة فعّالة، فلقد كان ينقل الحجارة على كتفه، ما بينها وبينه إلا إزاره، وكان له من العمر إذ ذاك خمس وثلاثون سنة في الأصحّ.

ولقد كان له ﷺ أثر كبير في حلّ المشكلة التي تسبّبت عن اختلاف القبائل حول من يستحقّ أن ينال شرف وضع الحجر الأسود في مكانه، فقد خضع جميعهم لاقتراحه الذي أبداه حلًّا للمشكلة، علمًا منهم بأنّه الأمين والمحبوب من الجميع. وذلك أنّه لمّا " هُدِمَ الْبَيْتُ بَعْدَ جُرْهُمٍ، بَنَتْهُ قُرَيْشٌ، فَلَمَّا أَرَادُوا وَضْعَ الْحَجَرِ تَشَاجَرُوا مَنْ يَضَعُهُ، فَاتَّفَقُوا أَنْ يَضَعَهُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ هَذَا الْبَابِ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، مِنْ بَابِ بَنِي شَيْبَةَ، فَأَمَرَ بِثَوْبٍ فَوُضِعَ الْحَجَرُ فِي وَسَطِهِ، وَأَمَرَ كُلَّ فَخِذٍ أَنْ يَأْخُذُوا بِطَائِفَةٍ مِنَ الثَّوْبِ فَيَرْفَعُوهُ، وَأَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَوَضَعَهُ...- وكانوا قد بنوا الكعبة من مال حلال فقالوا- وَلَا تَجْعَلُنَّ فِي نَفَقَةِ الْبَيْتِ شَيْئًا أَصَبْتُمُوهُ غَصْبًا، وَلَا قَطَعْتُمْ فِيهِ رَحِمًا، وَلَا انْتَهَكْتُمْ فِيهِ ذِمَّةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ،... ".[1]

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: سَأَلْتُ النّبيّ ﷺ عَنْ الجَدْرِ أَمِنَ البَيْتِ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: فَمَا لَهُمْ لَمْ يُدْخِلُوهُ فِي البَيْتِ؟ قَالَ: «**إِنَّ قَوْمَكِ قَصَّرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ**»قُلْتُ: فَمَا شَأْنُ بَابِهِ مُرْتَفِعًا؟ قَالَ: «**فَعَلَ ذَلِكَ قَوْمُكِ، لِيُدْخِلُوا مَنْ شَاؤُوا وَيَمْنَعُوا مَنْ شَاؤُوا، وَلَوْلا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِالْجَاهِلِيَّةِ، فَأَخَافُ أَنْ تُنْكِرَ قُلُوبُهُمْ، أَنْ أُدْخِلَ الجَدْرَ فِي البَيْتِ، وَأَنْ أُلْصِقَ بَابَهُ بِالأَرْضِ**»"[2].

من أهمّ ما يجعل للكعبة شرفًا وقداسةً في الأرض هو ما جعله الله لها، ومن أبرز الأدلّة على ذلك أنّ الذي قام بتأسيسها هو إبراهيم خليل الله عليه السلام، بأمر من الله تعالى، لتكون أوّل بيت لعبادة الله وحده ومثابة للناس وأمنًا. ولكن، هذا لا يعني أنّ للكعبة تأثيرًا على الطائفين حولها أو العاكفين فيها، فهي -على الرغم من قداستها وعظمتها- حجارة لا تضرّ ولا تنفع.

ولكنّ الله جلّ جلاله، حين بعث إبراهيم عليه السلام لتكسير الأصنام والطواغيت وهدم بيوتها، اقتضت حكمته أن يُشيّد فوق الأرض بناءً يكون شعارًا لتوحيد الله وعبادته وحده. ليظلّ مع مرور الزمن تعبيرًا للعالم عن المعنى الصحيح للدين والعبادة، وعن بطلان الشرك وعبادة الأصنام.

هذا البيت، الذي أُقيم لعبادة الله وحده، يدخل فيه الإنسان ليقف عزيزًا لا يخضع ولا يذلّ إلا لخالق الكون. وإذا كان لا بدّ للمؤمنين بوحدانية الله من رابطة يتعارفون بها، ومثابة يؤوبون إليها، فإنّ هذا البيت هو الأجدر بأن يكون رمزًا لهذه الرابطة والمثابة. فهو الشّعار الذي يجسّد وحدة المسلمين في جميع أنحاء الأرض ويعبّر عن توحيد الله والعبادة له وحده عبر العصور، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾[3].

(١) رواه البيهقيّ في دلائل النبوة، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، مج: ٢، باب: ما جاء في بناء الكعبة.
(٢) رواه البخاريّ في صحيحه، عن عائشة، حديث رقم: ١٥٨٤، كتاب: الحج، باب: فضل مكة وبنيانها.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

الإشارة: إذا أراد الله تعالى أن يجعل وليًّا من أوليائه إمامًا يُقتدى به، وداعيًا يدعو إليه، ابتلاه، فإن صبر ورضي اصطفاه، ولحضرته اجتباه، فيكون إمامًا يُقتدى به، وداعيًا يُهتدى به، وهذه سُنَّة الله تعالى في أصفيائه يبتليهم الله تعالى بتسليط الخلق عليهم وأنواع من البلايا، فإذا نقّوا من البقايا، وتكمّلت فيهم المزايا، أظهرهم للخلق داعين إلى الله ومرشدين إلى طريق الله، وقد تبقى الإمامة في ذرّيّتهم إن ساروا على هديهم، ومَن لم يسلك به هذا المسلك فلا يصلح للإمامة، وإن توجّه إليها كان ناقصًا في الدّعوة، ولذلك قال بعضهم: **(من ادّعى شهود الجمال قبل تأدُّبه بالجلال، فارفضه فإنّه دجّال)**، وكلّ من اتّصف بشيء من ظلم العباد لا ينال عهد الإمامة في طريق الإرشاد، وهو الهادي إلى سواء الطّريق.

البلاء تحقيق الولاء، فأصدقهم ولاءً أشدُّهم بلاء.

ولقد ابتلى الحقّ سبحانه خليلَه عليه السلام بما فرض عليه وشرع له، فقام بشرط وجوبها، ووَفَّى بحكم مقتضاها، فأثنى عليه سبحانه بقوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾[1] أي لم يُقَصِّر بوجهٍ البتّة.

يقال حمّله أعباء النّبوّة، وطالبه بأحكام الخُلَّة، وأشدّ بلاء له كان قيامه بشرائط الخلّة، والانفراد له بالتّجافي عن كلّ واحد وكلّ شيء، فقام بتصحيح ذلك مختليًا عن جميع ما سواه، سِرًّا وعَلَنًا.

كذلك لم يلاحظ جبريلَ عليه السلام حين تعرّض له وهو يُقْذف في لُجّة الهلاك، فقال: هل من حاجة؟ فقال: أمَّا إليكَ... فلا.

ومن كمال بلائه تعرّض جبريل عليه السلام في تلك الحالة، وأيّ بقيّة كانت بقيت له منه حتّى يكون لمخلوق فيه مساغ كائنًا من كان؟! وفي هذا إشارة دقيقة إلى الفَرْق بين حال نبيّنا صلى الله عليه وسلم وحال إبراهيم عليه السلام، فجبريل تعرّض للخليل وعَرَضَ عليه نفسه: فقال: أمَّا إليكَ... فَلا. ولم يُطِقْ جبريل صحبة النّبيّ صلى الله عليه وسلم فنطق بلسان العجز وقال: لو دنوتُ أنملة لاحترقتُ. وشتّان بين حالة يكون فيها جبريل عليه السلام من قُوّته بحيث يعرض للخليل عليه السلام نفسه، وبين حالةٍ يعترف للحبيب صلى الله عليه وسلم فيها بعجزه.

الإشارة: القلب هو بيت الرّبّ، يقول الله تبارك وتعالى لبعض أنبيائه: «طهّر لي بيتًا أسكنه، فقال: يا ربّ، أيّ بيت يسعك؟ فقال له: لن تسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن». فإذا تطهّر القلب من الأغيار وملئ بالأنوار، وتمكّنت فيه المعارف والأسرار، كان مرجعًا وملجأ للعبّاد، كلّ مَن وصل إليه وطاف به، كان آمنًا من الزّيغ والعناد، ومن خواطر السّوء وسوء الاعتقاد، ومن دخله بالمحبّة والوداد، أَمِن من الطّرد والبعاد، وكان عند الله من أفضل العباد. ومقام إبراهيم عليه السلام أي مقام التّوكّل، هو الاستغراق في عين بحر الشّهود، ورفع الهمّة عن ما سوى الملك المعبود.

الإشارة: دعاء الأنبياء عليهم السلام، كما يصدقُ بالحسّ يصدق بالمعنى، فيشمل دعاء الخليل القلوبَ التي هي بلد الإيمان، والأرواح التي هي معدن الأسرار والإحسان، فتكون آمنة من طوارق الشّيطان، ومحفوظة من الوقوف مع رؤية

(١) سورة النجم، الآية: ٣٧.

الأكوان، آمنة من الأكدار، محفوظة من رؤية الأغيار، فيرزقها الله من ثمرة العلوم، ويفتح لها من مخازن الفهوم، من آمن منهم بالشّريعة الظّاهرة، وجاهد نفسه في عمل الطّريقة الباطنة، حتّى أشرقت عليه أنوار الحقيقة العيانيّة، وأمّا من كفر بطريق الخصوص، ووقف مع ظواهر النّصوص، فإنّما يُمَتَّع بعلم الرّسوم الذي حدُّ حلاوته اللّسان، ثمّ يلجأ إلى عذاب الحجاب، وسوء الحساب، ولم يُفْضِ إلى حلاوة الشّهود والعيان، التي يمتّع بها الجَنَانُ حتّى يُفْضي إلى نعيم الجِنَان، فيتمّ النّعيم بالنّظر إلى وجهه الكريم، منحنا الله من ذلك حظًّا وافرًا بمنّه وكرمه.

قوله ﷻ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ* وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[١].

الإمام مَنْ يُقْتَدى به، وقد حقَّق تعالى له ذلك حتّى خاطب جميع الخلائق إلى يوم القيامة بالاقتداء به فقال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾[٢] أي اتّبعوا ملّة إبراهيم يعني التّوحيد، وقال: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[٣]. هذا هو تحقيق الإمامة، ورتبة الإمامة أن يَفْهَم عن الحقّ ثمّ يُفْهِمَ الخَلق؛ فيكون واسطة بين الحقّ والخَلْق، يكون بظاهره مع الخَلْق لا يفتر عن تبليغ الرّسالة، وبباطنه مشاهدًا للحقّ، لا يتغيّر له صفاء الحالة، ويقول للخلْق ما يقوله له الحقّ.

قوله ﷻ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ نطق بمقتضى الشّفقة عليهم، فطلب لهم ما أُكرِم به. فأخبره أنّ ذلك ليس باستحقاق نَسَب، أو باستيجاب سبب، وإنّما هي أقسام مضت بها أحكام فقال له: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾ وليس هذا كنعيم الدّنيا وسعة الأرزاق فيها، فهي لا ادّخار لها عن أحد وإن كان كافرًا، ولذلك لمّا قال ﷻ: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾[٤] فقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾[٥] إذ ليس للدّنيا من الخطر ما يمنعها عن الكفّار، ولكنّ عهدي لا يناله إلا مَنْ اخترته مِنْ خواصّ عبادي.

في الإعجاز العلميّ

في أشراط السّاعة

في الأدعية والأذكار

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[٦].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤-١٢٥.
(٢) سورة الحجّ، الآية: ٧٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.
(٦) سورة الفرقان، الآية: ٧٤.